إكليل البهاء

في بيان خطأ ترك المدح والثناء للدعاة والعلماء خشية وقوعهم في البدع والأهواء

تأليف

أنور بن محمود الإفاعي

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا

أما بعد:

منذ زمن وأنا أسمع هذه العبارة وهي: (ترك المدح والثناء للمشـــايخ والدعاة والعلماء خشية وقوعهم في البدع والأهواء)

وعلة أصـــحابها أن الفتن الســـابقة كما يقولون: علمتهم ترك المدح فقد مدحوا أقوامًا ولكنهم (انحرفوا ــ انتكسوا ــ تغيروا) بعد ذلك!! وأن الخصوم أصبحوا يعيروننا بأننا كنا نمدحهم ثم صرنا نذمهم

ولهذا السبب جرت الأنامل بكتابة هذه الرسالة كجواب على محتج بما سبق بقصد البيان وتوضيح الصواب والحق

ونسأل الله العظيم بفضله أن يبارك في المكتوب والكاتب وأهله، وسائر المحبين والزملاء الأصدقاء ومشايخه الفضلاء وسائر العلماء الأجلاء

كتبه

أنور بن محمود الفاعي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه

١٥ / ذي الحجة / ١٤٤٢

جواز ذكر

محاسن العلماء والمعلمين كي يقبل الناس عليهم والاستفادة من علومهم وبيان شروط ذلك

والجواب على تلك المقولة السابقة وحل عقد شبهتها: أنه ليس من العيب أن نمدح الانسان الصالح إذا دعت الحاجة وانتفت المفسدة فإن الأصل هو ذكر محاسن أهل الايمان والصلاح بأربعة شروط:

الأول: أن نمدحه بما هو فيه حقاً

الثاني: أن يكون المدح دون افراط ودون تفريط فلا غلو في مدحه ولا جفاء في بخسه لحقه

الثالث: ألّا يكون المدح أمام وجهه إلا إذا دعت الحاجة لذلك

الرابع: أن يقول المادح: نحتسبه كذلك والله حسيبه

الاقتصاد في المدح

وعدم التوسع فيه والاكثار منه واتخاذه عادة في أحاديث المجامع المجالس

جواز المدح بشـروطه لايعني أن يجعل ديدنًا في المجالس والملتقيات؛ فإن الممدوح وإن كان غائبًا وأمنت عليه الفتنة فإنها حينئذٍ غير مأمونة على المادح والمسـتمعين من السـقوط في الغلو بسبب التوسع، وإنما يكون وقت الحاجة وبقدر الحاجة.

قال الامام ابن باز رحمه الله تعالى:

فالذي ينبغي للعلماء أن يكرهوا المدح وأن لا يسـمحوا لأتباعهم وطلبتهم بالتوسـع في هذا. أما المدح القليل الشـيء القليل الذي للتشـجيع على الخير والتقوية على الخير والتنشـيط عليه فلا بأس، قد مدح النبي ﷺ بعض الصـحابة، وقال في عمر: (إنك الفاروق)، وقال فيه: (إنك ما سـلكت فجًا إلا سـلك الشـيطان فجًا غير فجك)، وقال في ابن عمر: (إنه رجل صـالح) فالمدح القليل الذي لا يخشـى منه الشـر لا بأس به للتشـجيع على الخير والدعوة إليه، أما التوسـع في المديح والإكثار منه فالأولى تركه ولو كان بحق؛ لأنه يخشى فيه الفتنة إذا كان الممدوح حيًا يسمع فإنه يخشى عليه الفتنة. نعم اهـ.

قلت: حب العلماء الصـادقين واجلالهم وتقديرهم منقبة عظيمة لصـابها، وهي من موالاة أولياء الله التي يؤجر العبد عليها؛ لأن ذلك من أوثق عرى الايمان، وقد قال الله تعالى عن

العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكيف لا نحب من يخشون الله ويعلموننا خشية الله

ولكن مع ذلك من كان محبٌ لعالمٍ من العلماء الثابتين فلا يشغل نفسه بمدحه في المجالس بل إن الافراط في ذلك قد يكون من مسببات النفرة عن ذلك العالم، وليكن ذكره ومدحه لربط الناس بالعلماء بحسب الحاجة وبقدرها ودون توسع أو مبالغة

ولهذا نقول: اجعل من حبك للعالم منطلقاً للاستفادة من علمه بالرحلة إليه أو القراءة في كتبه والاستماع لصوتياته، وبالتالي فإنك ستذكره في مجالسك العلمية ليس في باب المدح بل في باب العزو إليه والنقل عنه من خلال ما تحصلته من علومه ومعارفه، وهذا أثمر وأفخر، وهذا هو الحب الممدوح للعلماء

الثناء على العلماء والمعلمين الذين يتعرضون لشبهات أهل الضلال وتشويههم وصرف الناس عنهم

الثناء على العلماء والمعلمين الذين يتعرضون لشبهات أهل الضلال وتشويههم وصرف الناس عنهم من الواجبات العينية، ولهذا تجد أنه كلما كثرت الشبهات على عالم معين من فئة معينة من فئات أهل الضـــلال إذا خرجت كلمات من عالم في الثناء عليه أنها تهدم كيدهم كما فعلت عصى موسى بعصي وحبال سحرة فرعون.

وإذا كنا نعتقد أن العلماء هم ورثة العلماء فإننا نعتقد بالتبعية لذلك أنه على الاخوة في نفس الميراث الدفاع عن بعضـهم بعضًـا دفاعًا عن الميراث نفسـه الذي يجعلهم مع بعض يلتقون بقضية واحدة وهي نشر السنة النبوية

وبســبب كثرة الفتن وكثرة الهرج والمرج فيها فإنه إن حدثت فتنة ضــد عالم في بقعة معينة قد تخفى بعض حقائقها على بعض العلماء في البقاع الأخرى، وربما كان الظالم المفســـد المفتن ألحن لسانًا وأسرع تشكيًا فيوصل قضيته للعديد من البلدان بصورة مختلفة فيقع سوء الظن بذلك العالم.

ومن هنا نقول: الواجب على العلماء وطلاب العلم الفاهمين لمجريات الواقع وتأثير الفتن أن ينطقوا بالحق وينصـــرون المظلوم، وعلى طلاب العلم اظهار الحب والثناء والتقدير لعالمهم وشـــيخهم اظهاراً لمنزلته بالحق دون افراط ولا تفريط ومن تجاوز في المدح والثناء فقد خان الحق وأعان أهل الباطل على أهله

فقد ثبت في المسند من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من رد عن عرض أخيه المسلم كان حقا على الله عز وجل أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة).

وقال العلامة ابن عثيمين في شرح الأربعين تحت حديث الدين النصيحة (صـ/١١٨):

والنصيحة للعلماء تكون بأمور منها:

الأول: محبتهم، لأنك إذا لم تحب أحدا فإنك لن تتأسى به.

الثاني: معونتهم ومساعدتهم في بيان الحق، فتنشر كتبهم بالوسائل الإعلامية المتنوعة التي تختلف في كل زمان ومكان.

الثالث: الذب عن أعراضهم، بمعنى ألا تقر أحدا على غيبتهم والوقوع في أعراضهم

وإذا نسب إلى أحد من العلماء الربانيين شيء يستنكر فعليك أن تتخذ هذه المراحل:

المرحلة الأولى: أن تتثبت من نسبته إليه، فكم من أشياء نسبت إلى عالم وهي كذب، فلابد أن تتأكد، فإذا تأكدت من نسبة الكلام إليه فانتقل إلى

المرحلة الثانية: وهي: أن تتأمل هل هذا محل انتقاد أم لا؟ لأنه قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن القول منتقد، وعند التأمل يرى أنه حق، فلابد أن تتأمل حتى تنظر هل هو منتقد أو لا؟

المرحلة الثالثة: إذا تبين أنه ليس بمنتقد فالواجب أن تذب عنه وتنشر هذا بين الناس وتبين أن ما قاله هذا العالم فهو حق وإن خالف ما عليه الناس.

المرحلة الرابعة: إذا تبين لك حسب رأيك أن ما نسب إلى العالم وصحت نسبته إليه ليس بحق، فالواجب أن تتصل بهذا العالم بأدب ووقار، وتقول: سمعت عنك كذا وكذا، وأحب أن تبين لي وجه ذلك، لأنك أعلم مني، فإذا بين لك هذا فلك حق المناقشة، لكن بأدب واحترام وتعظيم له بحسب مكانته وبحسب ما يليق به.

أما ما يفعله بعض الجهلة الذين يأتون إلى العالم الذي رأى بخلاف ما يرون، يأتون إليه بعنف وشدة، وربما نفضوا أيديهم في وجه العالم، وقالوا له: ما هذا القول الذي أحدثته؟ ما هذا القول المنكر؟ وأنت لا تخاف الله.

وبعد التأمل تجد العالم موافقا للحديث وهم المخالفون له، وغالب ما يؤتى هؤلاء من إعجابهم بأنفسهم، وظنهم أنهم هم أهل السنة وأنهم هم الذين على طريق السلف، وهم أبعد ما يكون عن طريق السلف وعن السنة اهـ.

قلت: ومن دفاعنا عن العلماء الدفاع عن هذا الكلام الجميل من الامام ابن عثيمين رحمه الله تعالى؛ فقد واجهت قبل سنوات من ينتقد عليه هذا الكلام، والحق أنه صواب؛ لأنه يتكلم عن العالم الرباني وليس عن أهل البدع، ولذلك قال: (وإذا نسب إلى أحد من العلماء الربانيين شيء يستنكر فعليك أن تتخذ هذه المراحل) ومع ذلك فالعدل واجب في التعامل مع الموافق والمفارق ولكن التوقير لا يكون إلا لأهل السنة ومن وقر أهل البدع فقد أعان على انتشار بدعتهم

قبول المدح
لرد شبهات المبطلين وإغاظة المبتدعة
وسائر الحزبيين

سئل الإمام العلامة الوادعي رحمه الله تعالى:

يقولون: إن الشيخ مقبل يحب المدح ويعللون ذلك أنك تمدح أكثر من مره ولم تنكر على المادح بل هناك من يقسم أنك تحب المدح؟

الجواب

أما مسألة المدح فهو أحسن من الذم لكن بحق؛ والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم سئل كما في صحيح مسلم عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه قال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)، والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أثنى على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وأثنى على جماعة من صحابته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإذا كان بحق والشخص لا يخشى على نفسه أن يفتن فلا بأس بذلك.

أما إذا كان غلواً، أو كان متجاوزاً للحد، ونحن نترك الأخوة الذين يتكلمون إغاظة لأصحاب البدع، فالمبتدعة تارة يقولون: إننا علمانيون، وأخرى يقولون: إننا اشتراكيون – قد قال هذا عبدالله صعتر أننا من إخوان الاشتراكيين –، وذاك يقول: إننا عملاء، وأخرى يقولون: إننا جواسيس للدولة، وأخر يقول: إننا خوارج المهم أسماء كثيرة، وهذه الأسماء الحمد لله نحن لا نبالي بها لكن من أجل إغاظتهم نترك إخواننا يتكلمون بالحق، وبعض إخواننا ربما يبالغ بعض المبالغة وأنا عازمٌ إن شاء الله في طبعة قادمة للترجمة أن تعدل بعض الأشياء التي فيها مبالغة والله المستعان.

فالمهم الإخوان المفلسون هم الذين إذا مدحوا الشخص كبروا شأنه وعظموه مرحباً بالشيخ وحيا، وإذا انفصل منهم قالوا: احذوه هذا من جماعة التكفير، فإذا كان الشخص معهم فهو شيخ الإسلام، وإن لم يكن معهم فهو من جماعة التكفير منفر، ما أدري كيف يتجاسرون أن يقولون: إن أهل السنة منفرون، أهل السنة إذا جاؤوا امتلأت المساجد وما حول المساجد وهم ربما لا يمتلئ بل ربما يبقى المسجد فارغاً.

فالمهم أننا ابتلينا بهم، فالمدح ومسألة التواضع أمرٌ طيب، وأنا أخبر عن نفسي أنني عند نفسي لا أساوي بصلة فليبلغ الشاهد الغائب، لكن إغاظة لهم لأولئك الذين ما دروا ماذا يسموننا، يأتون بالمتناقضات فينا والله المستعان اهـ.

من شريط: (أسئلة السلفيين من أهل صنعاء)

للاستماع للصوتية

http://muqbel.net/files/fatwa/muqbel-fatwa773.mp3

سقوط بعض الشيوخ والدعاة في الفتن
يضرهم ولا يضر من كان مدحهم وأثنى
عليهم أيام صلاح حالهم

وأما ما يعتري بعض الدعاة والمعلمين من الانحراف في الفتن فهذا ذنبهم ولا يصح أن يعير بهم من كان يمدحهم ويحسن الظن بهم؛ فانحراف المنحرف أيام الفتن ليس ذنبٌ على من أحبهم لصلاحهم وشكر حالهم وأثنى على جهودهم وأفعالهم أيام الثبات؛ لأنك إذا أثنيت على العالم والداعية أيام الثبات بما هو أهله فقد قلت الحق في مكانه وزمانه وما يصدر منه بعد ذلك الزمان هو من الحور بعد الكور، وله أسبابه الظاهرة أو الباطنة في سائر الأمثلة المشاهدة لمن حصل له ذلك

وكل ذلك مرده إلى الله العالم في سرائرهم والحاكم على أفعالهم؛ فالله تعالى هو من يقلب القلوب ولهذا شرع لنا أن نقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك) فقولنا: (ثبت) دليل أن الداعي كان على الخير ولهذا طلب الثبات عليه.

وقد انحرف بعض طلاب شيخنا الامام الوادعي كالمهدي وعقيل والريمي والمعلم ولم يعلم أنه ترك المدح لمن جاء بعدهم احتياطاً ولا امتناعاً، بل مدح وأثنى على بعض طلابه من بعدهم كالبرعي والامام والمأربي ومع ذلك انحرفوا أيضًا، فهو قال ما يعلم والله أعلم بهم منه وأحكم.

فلا نقول: ليته ذمهم أو أنه أخطأ في مدحهم؛ لأنه قال فيهم ماهم عليه وما هم أهله في تلك الأيام بناء على ظاهرهم، وأما التغيرات التي طرأت عليهم فهي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

ولهذا الأمر أدلته الكثيرة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]

فنبينا صلى الله عليه وسلم لا يعلم غيب نفسه ولا غيب غيره إلا ما علمه الله تعالى، فكيف لمن دونه أن يعلم ذلك، فالعالم يربي ويعلم الطالب ويثني عليه ويزكيه ويمهد له الانتقال من مقام الأخذ والتعلم لمقام العطاء والتعليم ثم يفاجئ به قد انصرف وانجرف وراء الحزبيات والجمعيات، وربما كان من هواة المشاريع العلمية والتحقيق للمصنفات والمسانيد وإذا به يلهث وراء الدنيا وتمضي الأيام وإذا به نسيًا منسيًا، لا يكاد يذكر، وإذا ذكر إنما يذكر بالسوء.

ولو علم معلمه حقيقة ذلك من أول الأمر ما علمه ولا تعب من أجله ولا انشغل بإنشائه وتهييئه لخلفته في نشر الخير، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]

الجواب على قولهم

كنتم تقولون عن البعض: العالم الفقيه واليوم تصفونه بالجهل وبيان جواز ذلك والتفصيل فيه

من عجيب أمر بعض الجهال المغفلين وبعض الضلال المغرضين استدلالهم بقصة اسلام ابن سلام رضي الله عنه، وهي عند البخاري وغيره وفيها أنه لما آمن ابن سلام قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يسمعوا بإسلامي يبهتوني ويقعوا في فأخبئني وابعث إليهم فاسألهم عني فبعث إليهم فجاؤوا – وقد خبأه –

فقال: (أي رجل عبد الله بن سلام فيكم)؟ قالوا: (سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا وعالمنا وابن عالمنا) فقال: (أرأيتم إن آمن أتؤمنون)، فقالوا: (أعاذه الله من ذلك ما كان ليفعل)، فقال: (اخرج يابن سلام إليهم) فخرج فقال: (أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله) فقالوا: (بل هو شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا) فقال: ألم أخبرك يا رسول الله إنهم قوم بهت؟ اهـ

والجواب: أن اليهود أنكروا خيره وعلمه بسبب مناصرته للحق واعتناقه للإسلام، وأما العلماء والدعاة الذين شهدوا للبعض بالفضيلة ثم شهدوا عليهم بالرذيلة فبسبب خذلانهم للحق ونصرتهم لبدعة ظلماء أو لحزبية عمياء.. فلا مقارنة بل المقارنة ظلم والظلم ظلمات يوم القيامة

ويجب أن يعلم أن هذه الدعوة قائمة على العدل، وتعلمنا منها أن العدل مطلوب في كل الأمور دون اســـتثناء؛ وحتى في خلافاتنا مع الكفار فإن كفرهم وضـــلالهم لا يبيح لنا ظلمهم ومجانبة العدل معهم في أدنى صغيرة فضلاً عن الكبيرة؛ فالإسلام يقوم على العدل وكل من سعى بالظلم باسمه فقد سعى لهدمه

فالدعوة السلفية لا تقوم على هدم الحقوق، فهي تأخذ من الوحي الإلهي التعاليم الربانية في المعتقدات والعبادات وهكذا في الأخلاق والمعاملات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾

وهذا أمر لجميع المسلمين بأن يتحلوا بالعدل في أحكامهم حتى فيمن يبغضونهم بغضًا مطلقًا وهم الكفار فكيف يكون شأنهم فيمن يبغضونهم بقدر معلوم فقط وهم فساق المسلمين؟

فنحن نشهد لابن حزم بالعلم والفضل مع ما وقع له من التجهم، ونشهد للحافظ ابن حجر والامام النووي بالإمامة مع ما وقع لهما من التمشعر، وذلك أننا نفرق بين من زل وسيرته مليئة بنصرة السنة وبين من ضل وسيرته مليئة بعداوة أهل السنة، كما هو حال الكوثري وأبو غدة والغزالي المعاصر وغيرهم.

وأما عن مدحنا للبعض بالعلم وعند الاختلاف نكيل له الذم فهذا ليس على اطلاقه بل لنا فيه تفصيل من كتمه ونقل عنا غيره فقد ظلمنا، وهو ما سنذكره في الفصل التالي بعون الله تعالى وتوفيقه

اثبات تحول العالم لجاهل

وبيان انتفاء وصف العلمية عنه بعدما كان وصف له

نحن نفرق بين أنواع الخلاف وأنواع المختلفين، وقد شرحت تفصيل ذلك في رسالتي (الصلح المقلوب بين الحزبيين وأهل السنة) إلا أن القصد في هذه الرسالة هو الوجازة فأقول: إن الخلاف ثلاثة أقسام:

الأول: خلاف التنوع: وهذا القسم لا انكار فيه البتة، بل هو طاعة وعبادة ما صحت أدلته

الثاني: خلاف الأفهام: وهو داخل في الاجتهاد فإن كان الاجتهاد سائغ فلا انكار فيه وإن كان الاجتهاد غير سائغ فيقع الانكار ولا يحق لأحد أن يدعي أنه مجتهد في مخالفته للنصوص

الثالث: خلاف التضاد: وهذا القسم لا خلاف بين أهل السنة على ضلال أهله وانحرافهم وهو خلاف بين الحق والباطل، وصورته أن يستدل الطرف الأول على قوله بدلالة الكتاب والسنة وربما زاد الاجماع على ذلك، فيخالفه الطرف الثاني ويستدل بالرأي، وربما استدل بالنصوص التي لا دلالة فيها على مذهبه وإنما يستدل بها من باب تتبع المتشابهات ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل الباطل

وهذا النوع من الخلاف يوجب القطيعة والتشنيع؛ عملاً بأدلة الولاء والبراء، إلا أننا ننبه أن القطيعة والتشنيع في هذا النوع من الخلاف تنزل بالقدر المأذون به شرعاً فليس

الجهمي كالأشـعري وليس من خالف في أصـل كمن خالف في عشـرة وهكذا من باب العدل والعلم المنافي للظلم والجهل

ومن هذا الباب فإن المنحرف عن الحق بعد أن كان يستدل بالنصوص لنصرة الحق ثم انقلب على عقبيه وصار يستدل بالعقل على رد تلك النصوص التي كان يستدل بها فإنه استبدل العلم بالهوى فانتقل للجهل بعد أن كان عالمًا

فإذا قال العالم عن معين من الناس أثناء ثباته أنه عالم فقد كان كذلك، وإذا قال عنه جاهل بعد انحرافه فقد صـار كذلك؛ فالعالم يزداد علمه بالثبات ويزول أو ينقص بالانحراف.

فالتغير حاصـل للعباد والتحول حاصـل أيضـاً، ولهذا أمرنا كمسـلمين أن نكثر من هذا الدعاء: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك) وإذا كنا نعترف أن التغير يجعل من المسلم كافراً، ومن الصالح طالحاً، ومن الصادق كاذباً، ومن الأمين خائناً، ومن الصحيح مريضاً، ونحو ذلك، فإننا نجد أيضاً أن العالم قد يتحول إلى جاهل

وهناك نصـوص وأخبار وآثار اسـتنتج منها العلماء أن العالم قد ينتقل ويتحول من العلم إلى الجهل، ومنها:

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

(١٧٦) سَـــاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَـــهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾

قال العلامة الكبير السعدي رحمه الله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ أي: علمناه كتاب الله، فصـــار العالم الكبير والحبر النحرير. ﴿ فَانسَـلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّـيْطَانُ ﴾ أي: انسـلخ من الاتصـاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصـير صـاحبه متصـفًا بمكارم الأخلاق ومحاسـن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس. فلما انسـلخ منها أتبعه الشـيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزا اهـ

فائدة: فانظر كيف دلت الآية على اتصـافه بالعلم في حال الثبات ثم اتصـافه بالجهل في حال الانحراف، فالعلم رداء ولكنه انسـلخ من هذا الرداء كما تسـلخ الماشـية من جلدها فتصير بدونه

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى:

قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم. وقال مجاهد: إنما العالم من خشـــي الله عز وجل. وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار جهلا. وقيل لسعد

بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل اهـ وجاء عن ابن مسعود أنه قال: (ليس العلم من كثرة الحديث ولكن العلم من الخشية)

قلت: وعندما تحصل الفتن فينحرف المنحرف ويرى منه أهل العلم والفضل والدعاة إلى الله عدم الخشية ومجانبة التقوى والاغترار بالرأي؛ فإنهم يذمونه بالجهل للأسباب الطارئة وإن كانوا قد وصفوه بالعلم قبل ذلك؛ لأنه انسلخ من العلم بقدر انسلاخه من الخشية لله تعالى

ولهذا يتصف بالجهل مهما تكلم عن العلم وسرد الأحاديث وأبدع في المحاضرات؛ فإن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما بالعمل بالهداية

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]

قال الامام القرطبي رحمه الله تعالى:

وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه، أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ والله أعلم اهـ.

قلت: ولازم ذلك أن من لم يتق الله حرم الفرقان بين الحق والباطل فإذا وقعت الفتنة أو الشبهة سقط فيها فحرم العلم بسبب مجانبته للتقوى ووقع بالجهل بسبب ملازمته للهوى، فصح أن يقال عنه: (جاهل) وإن كان من المتصفين بالعلم قبل ذلك

أقوال بعض العلماء

في اثبات صيرورة العالم لجاهل

أولاً: ذهاب العلم بعدم العمل به

جاء في حديث موضـــوع ذكره الغزالي في الاحياء وأبو نعيم في الحلية: (من عمل بما علم أورثه الله مالم يكن يعلم) ومع ذلك فهو حكمة صـــحيحة تناقلها العلماء من زمن قديم وتنقل كأثر عن السلف، فقد قال شيخ الاسلام كما في الفتاوى (١٢٥/٥): يقول بعض السلف رضي الله عنهم: (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) ويدل على هذا قوله ســـبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ وقوله عز وجل ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ فمن اهتدى زاده الله هدى وزاده علما وتوفيقا اهـ

وكنت قد وقفت على هذا الأثر بتتمة مفيدة ومهمة وهي قولهم: (من عمل بما علم أورثه الله مالم يكن يعلم ومن لم يعمل بما علم أوشك أن يسلبه الله ما كان يعلم) ومع ذلك فهي التتمة في عداد المفقودات عندي، إلا أن هذه الفقرة تعتبر مفهوماً لمنطوق الفقرة الأولى

وقد جاء عن عمر بن عبد العزيز ما يؤكد هذا المفهوم فقال: إنما قصـــر بنا عن علم ما جهلنا تقصـــيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا اهـ

ونقله عنه شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (٤/٣٥٨) بلفظ: جهلنا بما علمنا تركنا العمل بما علمنا ولو علمنا بما علمنا لفتح الله على قلوبنا غلق ما لا تهتدي إليه آمالنا اهـ

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في المستدرك على مجموع الفتاوى (١/١٧٩) ومختصر الفتاوى المصرية (١/١٠٣):

والعبد إذا عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وإذا ترك العبد العمل بعلمه عاقبه الله بأن يضله عن الهدى وألا يعرفه الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ اهـ

قلت: ومفهوم قولهم: إن من عمل بعلمه زاده الله علما لم يكن يعلمه أن من لم يعمل بعلمه سلبه الله ما كان يعلم، وهذا مصرح بكلام شيخ الإسلام في قوله: (وإذا ترك العبد العمل بعلمه عاقبه الله بأن يضله عن الهدى وألا يعرفه الصراط المستقيم) فإن الضلال ملازم للجهل، وعدم المعرفة جهل واضح

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة (١/١٧٢):

فالعمل به من أعظم اسباب حفظه وثباته وترك العمل به أضاعه له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل اهـ

وقال العلامة حمد بن عتيق رحمه الله تعالى كما في الدرر السنية (٤/٣٤٥):

العلم يحفظ بأمرين: تذاكر وفهم، أحدهما العمل به؛ فمن عمل بما علم حفظ عليه علمه وأثابه علماً آخر ما يعرفه، لأن التعطيل ينسي التحصيل اهـ

قال العلامة الفوزان حفظه الله تعالى:

ومن عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم كما في الأثر، والعلم ينمو مع العمل ويرحل مع ترك العمل اهـ

والشاهد: قوله: [ويرحل مع ترك العمل] فلا تتعجب عندما يمدح الواحد بالأمس بالعلم واليوم بالجهل فإن الانحراف عن العلم عقوبته الجهل

وقال العلامة الفوزان أيضاً:

العلم لا ينمو ولا يبقى ولا يستفيد منه صاحبه إلا بالعمل الصالح اهـ

قال العلامة عبد العزيز الراجحي في شرح الايمان (صـ/٣٠٣):

لا شـــك أن ثمرة العلم العمل، وأن العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه، وإلا ارتحل، والله – سبحانه وتعالى– أثنى على المؤمنين بخشيته، وتقواه، قال –سبحانه–: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فالعلماء قســمان: علماء الآخرة، وهم علماء الشــريعة هم الذين يعلمون، ويعملون. أما علماء السوء فهم الذين يعلمون ولا يعملون اهـ

فائدة: وخلاصـــة ما ذكره العلماء في هذا الباب فيه تقرير زوال العلم بعدم العمل به وزوال العلم بالشيء يعني الجهل به، فيصير جاهلاً لأحد أمرين:

الأول: ذهاب العلم بنسيانه:

كأن يترك السواك ولفرط تركه له ينسى فضله، وكأن يعلم فضل المسح على رأس اليتيم ولكنه يهمل العمل بذلك حتى ينسى النصوص الواردة فيه، وهكذا كأن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فينسى المنكرات كلما شاهدها لا يستنكرها بسبب نسيانه لكونها منكرات

وقد جاء الشعبي وعن وكيع بن الجراح عليهما رحمة الله قولهم: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به ومثله اهـ

الثاني: ذهاب العلم بذهاب بركته:

يصاب العالم بالغفلة عن الفضل لأنه لم العلم لفضله، فتكون حافظته باقية وتراه يتحدث عن العلم وربما فاق غيره في ذكر النصوص والآثار ولكنه يجهل حقيقة العلم الذي عنده ومنزلته العظيمة وفضل العمل به

ومما اشتهر عن السلف رحمهم الله قولهم: (**هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل**)

ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٦/٥٦) والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (٣٤/١): عن ابن المنكدر، قال: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل اهـ

وقال السخاوي في فتح المغيث (٣٥٩/٢): ولابن عبد البر عن سفيان الثوري قال العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل اهـ ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٠٦/١) وذكره عن الثوري أيضاً الشاطبي في الموافقات (١٠٢/١)

وقال ابن الحاج في المدخل (٢٨٦/٤): وكما قال الإمام سهل بن عبد الله العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل اهـ

ثانيًا: ذهاب العلم بالمعصية

قال الامام ابن بطة في الابانة (٢/٥٤٥):

فاعلم يا أخي أن من كره الصواب من غيره ونصر الخطأ من نفسه لم يؤمن عليه أن يسلبه الله ما علمه، وينسيه ما ذكره، بل يخاف عليه أن يسلبه الله إيمانه، لأن الحق من رسول الله إليك افترض عليك طاعته، فمن سمع الحق فأنكره بعد علمه له فهو من المتكبرين على الله، ومن نصر الخطأ فهو من حزب الشيطان اهـ

قال الامام النووي في تهذيب الأسماء (١/٦٨):

فلما أخذ الشافعي رحمه الله في الفقه، وحصل منه على مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة ما حصل، رحل إلى المدينة قاصدًا الأخذ عن أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، ورحلته مشهورة فيها مصنف معروف مسموع، وأكرمه مالك رحمه الله وعامله لنسبه وعلمه وفهمه وعقله وأدبه بما هو اللائق بهما، وقرأ الموطأ على مالك حفظًا فأعجبته قراءته، فكان مالك يستزيده من القراءة لإعجابه من قراءته، ولازم مالكًا فقال له: اتق الله، فإنه سيكون لك شأن. وفي رواية أنه قال له: إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بالمعصية. وكان للشافعي حين أتى مالكًا ثلاث عشرة سنة اهـ

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي وهو يتحدث عن المعصية (صـ/٥٢):

ومن عقوباتها انها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك المخايل إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمه المعصية ولايزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم اهـ

ويروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشـــدني إلى ترك المعاصـــي
وقـال اعلـم بأن العلـم نور ونور الله لا يؤتاه عـاصـــي

الخاتمة

كانت جولة عابرة كتعليق على استفسار لأحد الاخوة ولم أدر إلا وأنا استرسل بالكتابة والبحث حتى وصلت لهذا الموصل وكانت كتابتي لهذه الرسالة في عصر الخامس عشر من شهر ذي الحجة لألف وأربعمائة واثنين وأربعين وانتهيت منها في منتصف ليلة السادس عشر من نفس الشهر

أسأل الله تعالى أن ينفع بها ويبارك فيها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم لا رياء فيها ولا سمعة

والحمد لله رب العالمين

كتبه

أنور بن محمود الفاعي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه

٧٧١٢٧٠٧٠١